

## سورة المدثر

هي مكية ، نزلت بعد سورة الزمل ، وعدد آياتها ست وخسون .  
وصلتها بما قبلها :

(١) أنها متواخية مع السورة قبلها في الافتتاح ببدء النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أن صدر كليهما نازل في قصة واحدة .

(٣) أن السابقة بدئت بالأمر بقيام الليل ، وهو تكميل لنفسه صلى الله عليه وسلم

بعبادة خاصة ، وهذه بدئت بالإندار لغيره ، وهو تكميل لسواه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا تَقَرَّ

فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ

يَسِيرٍ (١٠) .

## شرح المفردات

المدثر: أصله المدثر، وهو الذي يتدثر بثيابه ، أى يتغطى بها لينام أو ليستدفئ ،

والدثار: اسم لما يتدثر به ، أنذر: أى حذر قومك عذاب الله إن لم يؤمنوا ، كبر:

أى عظم ، فطهر: أى طهر نفسك مما تدم به من الأفعال ، وهدبها عما يستهجن من

الأحوال ، والرجز: العذاب كما قال: « لَنْ كَشَفْتَعَنَّ الرَّجْزَ » أى اهج المآثم

المؤدية إلى العذاب ، ولا تمنن تستكثر: أى ولا تمنن بملك على ربك تطلب

كثرتة ، نقر : أى نفخ ، الناقور : أى الصور ، عسير . أى شديد ، غير يسير .  
أى غير سهل .

### المعنى الجملى

روى جابر بن عبد الله أنه عليه الصلاة والسلام قال : « كنت على جبل حراء فنوديت  
يا محمد إنك رسول الله ، فنظرت عن يمينى وعن يسارى ، فلم أر شيئاً فنظرت فوقى فرأيت  
الملك قاعدا على عرش . بين السماء والأرض ، نخفت ورجعت إلى خديجة فقلت :  
دثرونى دثرونى ، وصبوا على ماء بارداً ، فنزلت ( يأيها المدثر قم فأنذر - إلى قوله  
والرجز فاهجر ) « وقد أمر الله رسوله بالإندار وتطهير نفسه من دنىء الأخلاق والمآثم  
والصبر على أذى المشركين ، فإنهم سيلقون جزاءهم يوم ينفخ فى الصور ، وهو يوم  
شديد الأهوال على الكافرين ليس بالهين عليهم .

### الإيضاح

( يأيها المدثر . قم فأنذر ) أى أيها الذى تدر بثيابه رعباً وفرقاً من رؤية الملك  
عند نزول الوحي أول مرة : شمر عن ساعد الجد وأنذر أهل مكة عذاب يوم عظيم ،  
وادعهم إلى معرفة الحق لينجوا من هول ذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة  
عما أرضعت .

والداعى إلى ربه الكبير المتعالى لا يتم له ذلك إلا إذا كان متخلقا بجميل الخلال  
وحميد الصفات ، ومن ثم قال :

( وربك فكبر ) أى عظم ربك ومالك أمورك بعبادته والرغبة إليه دون  
غيره من الآلهة والأنداد .

ونحو الآية قوله : « أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » .

( وثيابك فطهر ) سئل ابن عباس عن ذلك فقال : لاتلبسها على مقصية

ولا عن عُذْرَةَ ، ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن مسعدة التقي :

فإني بحمد الله لانبوب فاجرٍ لبستُ ولا من عُذْرَةَ أتقنعُ

والعرب تقول عن الرجل إذا نكث العهد ولم يف به : إنه لدنس الثياب ، وإذا

وفي ولم يندُر ، إنه لطاهر الثوب ، قال السموءل بن عادي اليهودي .

إذا المرء لم يدنس من اللؤمِ عرضه فكل رداء يرتديه جميلٌ

ولا تزال هذه المعاني مستعملة في ديار مصر وغيرها فيقولون : فلان طاهر الذليل ،

يريدون أنه لا يلامس أجنبية .

ويرى جمع من الأئمة أن المراد بطهارة الثياب : غسلها بالماء إن كانت نجسة ،

وروى هذا عن كثير من الصحابة والتابعين ، وإليه ذهب الشافعي فأوجب غسل

النجاسة من ثياب المصلي .

وقد استبان للمشتغلين بأصول التشريع وعلماء الاجتماع من الأوربيين أن

أكثر الناس قَدْرًا في أجسامهم وثيابهم أكثرهم ذنوبًا ، وأطهرهم أبدانًا وثيابًا أبعدهم

من الذنوب ، ومن ثم أمروا المسجونين بكثرة الاستحمام ونظافة الثياب ، فحسنت

أخلاقهم ، وخرجوا من السجن ، وهم أقرب إلى الأخلاق الفاضلة منهم إلى الرذائل .

وقال الأستاذ ( بنجام ) في كتابه أصول الشرائع : إن كثرة الطهارة في دين

الإسلام مما تدعو معتنيه إلى رقى الأخلاق والفضيلة إذا قاموا باتباع أوامره

خير قيام .

ومن هذا تعلم السر في قوله : ( وثيابك فطهر ) .

( والرجز فاجر ) أي اجر المماص والآثام الموصلة إلى العذاب في الدنيا والآخرة

فإن النفس متى طهرت منها كانت مستعدة للإفاضة على غيرها ، وأقبلت بإصغاء

وشوق إلى سماع ما يقول الداعي .

وقد جرت العادة أن الداعي تصادفه عقبتان :

- (١) الغرور والنخر والعظمة ، فيقول أنا مُسَدِّ للنعمة إليكم ، ومفيض للخير عليكم .  
 (٢) الأعداء ، وهؤلاء يؤذونه ويتر بصون به الدوائر ، ويتبعونه في كل مكان ويتألبون عليه ليل نهار ، وذلك من أكبر العوامل المثبطة للدعاة التي تجعلهم يكرّون راجعين ويقولون : ما لنا ولقوم لا يسمعون قولنا ، ولنبتمد عن الناس ، فإنهم لا يعرفون قدر النعم ، ولا يشكرون المنعمين ، ومن ثم قال تعالى :

( ولا تمنن تستكثر ) أي ولا تمنن على أصحابك بما علمتهم وبلغتهم من الوحي مستكثرا ذلك عليهم . وقد يكون المعنى : لاتضعف ، من قولهم : حبل منين أي ضعيف ، ومنه السير : أي أضعفه ، فالمراد لاتضعف أن تستكثر من الطاعات التي أمرت بها قبل هذه الآية .

وقد يكون المراد كما قال ابن كيسان : لاتستكثر عملا فتراه من نفسك ، إنما عمالك مِنَّةٌ من الله عليك ، إذ جعل لك سبيلا إلى عبادته .

( ولربك فاصبر ) على طاعته وعبادته ، وقال مقاتل ومجاهد : اصبر على الأذى والتكذيب .

والخلاصة — لاتجزع من أذى من خالفك .

ولما أتمَّ إرشاد رسوله أردفه بوعيد الأشقياء فقال :

( فإذا تفرق الناوور . فذلك يومئذ يوم عسير ) أي اصبر على أذاهم ؛ فإن بين أيديهم يوما عسيرا يذوقون فيه عاقبة كفرهم وأذاهم حين ينفخ في الصور ، ويومئذ تقال الجزاء الحسن والنعيم المقيم .

ثم أكد هذا بقوله :

( على الكافرين غير يسير ) أي يومهم عسير لا يسُرُّ فيه ولا فيما بعده ، على خلاف ما جرت به العادة من أن كل عسر بعده يسر ، وعسره عليهم أنهم يناقشون

الحساب ، وَيُعْطُونَ كِتَابَهُمْ بِشِئَانِهِمْ وَتَسْوَدُّ وُجُوهُهُمْ ، وَتَتَكَلَّمُ جِوَارِحُهُمْ ،  
فَيَقْتَضِحُونَ عَلَى رِءُوسِ الْأَشْمَادِ .

وأما المؤمنون فإنه عليهم يسير لا يناقشون فيه حسابا ، ويمشون ببيض الوجوه .  
أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : لما نزلت « فإذا نقر في الناقور » قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى  
جهنمه ينتظر متى يؤمر فينفتح ؟ قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما تأمرنا  
يارسول الله ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ  
شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ  
كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨)  
فَقَتَّلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ  
وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤)  
إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧)  
لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحِةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) .

### شرح المفردات

ذرنى ومن خلقت وحيدا : أى دعنى وإياه ، فإنى أ كفيك ، ممدودا : أى  
كثيرا ، شهودا : أى حضورا معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم ، ومهدت له تمهيدا : أى  
بسطت له الرياسة والجاه العريض ، سأرهقه ، أى سأكفه ، صعودا : أى عقبة

شاقة لا تطاق ، تقتل كيف قدر : أى لعنه الله كيف وصل بقوة خياله وسرعة خاطره إلى رميه الغرض الذى كانت تنتحيه قريش ، عبس : أى قطب ما بين عينيه ، بسر : أى كلع وجهه ؛ كما قال توبة بن الحَمِير .

وقد رابى منها صردود رأيتُهُ وإعراضها عن حاجتى وبُسورها  
لواحة ، من لَوَّحتَه الشمس : إذا سودت ظاهره وأطرافه ، قال :  
تقولُ ملاحك يا مسافرُ يا بنىَ عمى لاحتى الهواجر  
والبشر : واحدها بشرة ، وهى ظاهر الجلد :

### المعنى الجملى

روى «أن النبي صلى الله عليه وسلم قام في المسجد يصلى والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، وهو يقرأ : « حَمَّ تَنْزِيلُ السُّكَّتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ، ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ » فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم إلى استماعه أعاد القراءة ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد آفاً كلاماً ماهو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لخلابة ، وإن عليه إطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلو عليه ، ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : صبأً والله الوليد ، ولتصيون قريش كلهم ، فقال أبو جهل : أنا أ كفيكوه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزيفاً ، فقال الوليد : ما لى أراك حزيفاً يا بن أخى ؟ فقال : وما يمنعنى أن أحزن ، وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنتك تدخل على ابن أبى كبشة وابن أبى قحافة لتنال من فضل طعامهم ؟ فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أنى من أكثرهم مالاً وولداً ؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون

لهم فضل طامام؟ ثم أتى مجلس قومه مع أبي جهل فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون  
 فهل رأيتوه يخفق قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتوه قط  
 تكهن؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر، فهل رأيتوه ينطق بشعر قط؟  
 قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب، فهل جربت عليه شيئاً من الكذب؟  
 قالوا: اللهم لا (وكان رسول الله يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه) ثم قالوا:  
 (فأهو؟ قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتوه يفرق بين الرجل وأهله وولده  
 ومواليه، فهو ساحر وما يقوله سحر يآثره عن مسئلة أهل بابل، فارتج النادى فرحاً،  
 وتفرقوا معجبين بقوله، متعجبين منه؛ فنزلت هذه الآيات» .

وقد كان الوليد يسمى الوحيد، لأنه وحيد في قومه، فماله كثير فيه الزرع  
 والضرع والتجارة، وكان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونعم، وعبيد وجوار،  
 وله عشرة أبناء يشهدون الحافل والجامع، أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام وعمارة،  
 وقد بسط الله له الرزق وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة في قومه، وكان يسمى  
 زيجانة قریش .

## الإيضاح

(ذري ومن خلقت وحيداً) أى خلّ بينى وبين من أخرجته من بطن أمه  
 وحيداً لا مال له ولا ولد، ثم بسطت له الرزق والجاه العريض، فكفر بأنعم  
 الله عليه .

وقال مقاتل: خلّ بينى وبينه فأنا أتفرد بهدكتيه .  
 وفى هذا وعيد شديد على أمره وعظيم عناده واستكباره لما أوتيه من بسطة المال  
 والجاه، وكان يقول: أنا الوحيد بن الوحيد، ليس لى فى العرب نظير، ولا لأبى  
 نظير، وقد تهكم الله به وبلّغته، وصرّفه عن الغرض الذى كانوا يقصدونه من مدحه  
 والثناء عليه إلى ذمه وعيبه، فجعله وحيداً فى الشر والخبث .

(وجعلت له مالا ممدودا) أى أعطيته مالا كثيرا ، فكان له زرع وضرع وتجارة كثيرة ، قال مقاتل : كان له بستان لا ينقطع ثمره شتاء ولا صيفا .

وقال ابن عباس : كان له مال ممدود بين مكة والطائف من الإبل والخيل والغنم والبساتين الكثيرة التى لا تنقطع ثمارها صيفا ولا شتاء .

(وبنين شهودا) أى وبنين حضورا معه بمكة لا يفارقونها ؛ لكسب عيش ، ولا ابتغاء رزق ، إذ كانوا فى غنى عن الضرب فى الأرض ، بما لهم من واسع الثراء ، فكان مستأنسا بهم ، طيب القلب بشهودهم .

(ومهدت له تمهيدا) التمهيد عند العرب : التوطئة ، ومنه مهد الصبي ، والمراد وسعت له الأرزاق ، وبسطت له الجاه ، فكان من الحق عليه أن يشكر الله على ما أنعم عليه ، ولكنه كان لربه كئودا ، فأعرض عن الداعى واستكبر ، وقابل النعمة بالكفران ، والجلود بالجحود والمصيان .

ثم عجب من حاله وطلبه الزيادة على ما هو فيه فقال :

(ثم يطمع أن أزيد) أى ثم هو بعد ذلك يرجو أن يزيد ماله وولده .

وفى هذا استنكار لشديد حرصه وتكالبه على جمع حطام الدنيا كما هو شأن الإنسان ، فقد جاء فى الحديث « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى لها ثالثا » وجاء فى الخبر « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » .

وروى عن الحسن أنه كان يقول : إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى . ثم أياسه تعالى وقطع رجاءه فقال .

(كلا) أى لا أفضل ولا أزيد . قال مقاتل . ما زال الوليد بعد نزول الآية فى نقص من ماله وولده حتى هلك .

ثم علل هذا بقوله :

(إنه كان لآياتنا عنيدا) أى إنه كان معاندا لآيات المنعم ، وهى آيات القرآن

التي نزل بها الوحي على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم قال فيها ما قال ، ومعاينة الحق جديرة بزوال النعم .  
وفي الآية إيماء إلى أن كفره كفر عناد ، فهو يعرف الحق بقلبه ، وينكره بلسانه ، وهذا أقبح أنواع الكفر .

ثم بين ما يفعله به يوم القيامة فقال :

( سأرهقه صعُوداً ) أى سأكلفه عقبة شاقة الصعود ، والمراد أنه سيلقى العذاب الشديد الذى لا يطاق ، وقد جعل الله ما يسوق إليه من المصائب وأنواع المشاق شبيهاً بمن يُكَلِّف صعُود الجبال الوعرة الشاقة .  
قال قتادة : سيكلف عذاباً لراحة فيه .

ثم حكى كيفية عناده فقال :

( إنه فكرٌ وقدرٌ ) أى إنه فكر وزور فى نفسه كلاماً فى الطعن فى القرآن ، وما يخلق فيه من المقال ، وقدره تقديراً ، أصاب به ما فى نفوس قريش ، وما به وافق غرضهم .

والخلاصة — إنه فكر وتروى ماذا يقول فيه ، وبماذا يصفه به ، حين سئل عن ذلك ؟

ثم عجب من تقديره وإصابته الخبز فقال :

( فقتل كيف قدر ) هذا أسلوب يراد به التعجيب والثناء على المحدث عنه .  
تقول العرب : فلان قاتله الله ما أشجمه ! وأخزاه الله ما أشعره ! يريدون أنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يُحسد ويدعو عليه خاسده بذلك ، وعلى هذا النحو جاء قوله تعالى : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُوا » .

وقصارى ذلك — إن هذا تعجيب من قوة خاطره ، وإصابته الغرض الذى كانت ترمى إليه قريش من الطعن الشديد فى القرآن ، فقوله جاء وفق ما كانوا يريدون ، وطبق ما كانوا يتمنون من القدح فيه ، وفيمن جاء به .

ثم كرر هذا الدعاء للتأكيد والمبالغة فقال :

( ثم قتل كيف قدر ) أى لعن وعذب على أى حال قدر ما قدر من الكلام كما يقال فى الكلام : لأضربنه كيف صنع : أى على أى حال كانت منه .  
( ثم نظر ) أى ثم نظر فى أمر القرآن مرة بعد أخرى ، لعله يحاول بمخاطره ما يحبون ، ويصل إلى ما يرجون .

( ثم عبس ) أى ثم قطب وجهه حين ضاقت به الحيل ولم يدر ما يقول .  
ثم أكد ما قبله فقال :

( وبسر ) أى كلىح واسود وجهه ، قال سعد بن عبادة : لما أسلمت راعقتنى أمى ، فكانت تلقانى مرة بالبشر ، ومرة بالنسر .

وفى هذا إيماء إلى أنه كان مصدقاً بقلبه صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان ينكره عنادا ، فإنه لو كان يعتقد صدق ما يقول لفرح باستنباط ما استنبط ، وإدراك ما أدرك ، وما ظهرت العبوسة على وجهه .

( ثم أدبر واستكبر ) أى ثم صرف وجهه عن الحق ورجع القهقري مستكبرا عن الانقياد له والإقرار به .

ثم ذكر ما استنبطه من الترهات والأباطيل .

( فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ) أى فقال ما هذا القرآن إلا سحر ينقله محمد عن غيره ممن كان قبله من السحرة كسليمة وأهل بابل ويحكيه عنهم .  
ثم أكد ما سلف بقوله :

( إن هذا إلا قول البشر ) أى إنه ملتقط من كلام غيره ، وليس من كلام الله كما يدعى ، ولو صح ما قال لأمكن غيره أن يقول مثله أو يعارضه بأحسن منه ، ففى العرب ذوو فصاحة وذراية لسان ، وفيهم الخطباء والمقاويل الذين لا يجارون ولا يبارون ، ولم يعلم أن أحدا من أهل الزكاة والمعرفة سؤلت له نفسه أن يعارضه ، بل التجثوا إلى السيف والسنان ، دون المعارضة بالحجة . والبرهان ، وقد رووا فى هذا

الباب مضحكاتٍ أغلبها لا يصح ، لأنهم وهم المقاولين ذوو اللسن وقوة العارضة لا ينبغي أن ينسب إلى أحدهم مثل هذا الهذَر ؛ كقول من نسب إليه أنه عارض سورة الفيل فقال : الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب طويل ، ومِسْفَرٌ وتيل الخ .

ثم ذكر ما يلقاه من الجزاء على سوء صنيعه ، وفضيحه عمله فقال :  
( بأصليه سقر ) أى سادخله جهنم وأغرره فيها من جميع جهاته .  
ثم بالغ في وصف النار وتعظيم شأنها فقال :

( وما أدراك ما سقر ؟ ) تقول العرب : ما أدراك ما كذا : إذا أرادوا المبالغة والتهويل في الأمر . أى وأى شيء أعلمك ما سقر ؟ لأنها قد بلغت في الوصف حدا لا يمكن معرفته ، ولا يتوصل إلى إدراك حقيقته .  
ثم بين وصفها بقوله .

( لا تبق ولا تذر ) أى لا تبق لهم لحما ولا تذر عظما ، فإذا أعيد أهلها خلقا جديدا فلا تذرهم ، بل تعيد إحراقهم كرة أخرى ، وهكذا دَوَّالِيكَ كما جاء في الآية الأخرى . « كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَانَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَ هَالِيَدُوقُوا الْمَدَابَّ » .  
( لَوَاحِيَةٌ لِلْبَشَرِ ) أى تلفح الجلد لقمحة تدعه أشد سوادا من الليل ، قال ابن عباس : تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه .

( عليها تسعة عشر ) أى على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها .  
عن البراء « أن رهطا من اليهود سألوا بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن خزنة جهنم ، فقال : الله ورسوله أعلم ، فجاء جبريل فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فنزل عليه ساعتئذ عليها تسعة عشر » رواه البيهقي وابن أبي حاتم وابن مردويه .

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمُ إِلَّا فِتْنَةً  
لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا

إِيمَانًا ، وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَلَيَقُولَ الَّذِينَ  
 فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ، كَذَلِكَ  
 يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ،  
 وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ (٣٣)  
 وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْبُكْبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لَنْ  
 شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧)

### شرح المفردات

فتنة . أى سبب ضلال ، أوتوا الكتاب . هم اليهود والنصارى ، مرض . أى  
 ففاق ، مثلاً : أى حديثاً ، ومنه قوله تعالى : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » أى  
 حديثها والخبر عنها ، جنود ربك : أى هم خلقه من الملائكة وغيرهم ، ذكرى : أى  
 تذكرة وموعظة للناس ، كلاً : أى حقاً ، أدبر : أى ولى ، أسفر : أى أضاء ،  
 البكبر : أى البلىا والدواهى ، واحدها كبرى ، أن يتقدم : أى إلى الخير ، يتأخر :  
 أى يتخلف عنه .

### المعنى الجملى

روى ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس « أن أبا جهل لما سمع قوله تعالى :  
 « عليها تسعة عشر » قال لعريش : تكلمتكم أمهاتكم ، أسمع أن ابن أبى كبشة ،  
 (يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم) : يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الدُّهُمُ  
 « الشجعان » أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ، فقال له أبو الأشيد

ابن كَلْدَةَ الْجُمَحَى - وكان شديد البطش - أي هولتكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي  
 الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمررون إلى الجنة - يقول ذلك مستهزئاً «  
 وفي رواية أن الحرث بن كَلْدَةَ قال : أنا أ كفيكم سبعة عشر، وا كفوني أتم اثنين،  
 فنزل قوله : « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » أي لم يجعلهم رجالاً فيتعاطون  
 لمغالبتهم .

### الإيضاح

( وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ) أي وما جعلنا المدبرين لأمر النار  
 القاعين بمذاب من فيها إلا ملائكة ، فمن يطيق الملائكة ومن يغالبهم ؟  
 وهؤلاء : هم النقباء والمدبرون لأمرها .

وإنما كانوا ملائكة لأنهم أقوى الخلق وأشدهم بأساً وأقومهم بحق الله والغضب  
 له سبحانه ، وليكونوا من غير جنس المدبرين حتى لا يرقوا لهم ويرحمهم .  
 ثم ذكر الحكمة في اختيار هذا العدد القليل فقال :

( وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ) أي وما جعلنا عددهم هذا العدد  
 إلا حنة وضلالة للكافرين ، حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم ، ويكثر غضب  
 الله عليهم .

وفتنتهم به أنهم استقلوه واستهزؤوا به واستبعدوه وقالوا : كيف يتولى هذا العدد  
 القليل تعذيب الثقلين .

( ليستيقن الذين أتوا الكتاب ) أي إنه سبحانه جعل عدة خزنة جهنم هذه  
 العدة ، ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم لموافقة ما  
 في القرآن لكتبهم ، قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم .

( ويزداد الذين آمنوا إيماناً ) أى ويزداد إيمان المؤمنين حين يرون تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أن العدد كما قال :

ثم أكد الاستيفان وزيادة الإيمان فقال :

( ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ) أى ولا يشك أهل التوراة والإنجيل والمؤمنون بالله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى حقيقة ذلك العدد .

ولا ارتياب فى الحقيقة من المؤمنين ، ولكنه تعريض بغيرهم ممن فى قلبه شك من المنافقين .

( وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ) أى وليقول الذين فى قلوبهم شك فى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، والقاطعون بكذبه : ما الذى أراد الله بهذا العدد القليل المستغرب استغراب المثل ؟

ثم بين أن الاختلاف فى الدين سنة من سنن الله تعالى فقال :

( كذلك يضل الله من يشاء ويهذى من يشاء ) أى كما أضل الله هؤلاء المنافقين والمشركين القائلين عن عدة خزنة جهنم : أى شئ أراد الله بهذا الخبر حتى يخوفنا بعدتهم ؟ - يضل الله من خلقه من يشاء ، فيخذله عن إصابة الحق ، ويهذى من يشاء منهم ، فيوقفه لإصابة الصواب .

والخلاصة - إن مثل هذا الإضلال يضل من يشاء إضلاله لسوء استعداده ، وتدسيته نفسه ، وتوجيهها إلى سبب الأعمال ، واجتراح السيئات حين مشاهدة الآيات الناطقة بالهدى - ويهذى من يشاء لتوجيه اختياره إلى الحسن من الأعمال ، وتركيبته نفسه كما لاح له سبيل الهدى .

( وما يعلم جنود ربك إلا هو ) أى وما يعلم عدد خلقه ، ومقدار جموعه التى من جملتها الملائكة على ما هم عليه إلا الله عز وجل .

وهذا ردٌّ على استهزائهم بكون الخزنة تسعة عشر ، جهلاً منهم وجه الحكمة في ذلك .

قال مقاتل : هو جواب لقول أبي جهل : أما رب محمد أعوان إلا تسعة عشر .  
وخلاصة ذلك — إن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه .

( وما هي إلا ذكري للبشر ) أي وما سقر وصفتها إلا تذكرة للبشر .

( كلا ) أي كلا لا سبيل لكم إلى إنكارها لتظاهر الأدلة عليها .

( والقمر . والليل إذا أدبر . والضحى إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر ) : نذيراً للبشر أي أقسم بالقمر الوضاح ، والليل إذا ولي وذهب ، والضحى إذا أشرق — إن جهنم لإحدى البلايا الكبار والدواهي العظام لإنذار البشر .

ثم بين أصحاب النذارة فقال :

( لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ) أي لمن شاء أن يقبل النذارة أو يتولى عنها ويردّها .

ونحو الآية قوله : « **وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ** » ولقد علمنا المستأخرين .

وخلاصة ما سلف — ها أنتم أولاء قد علمتم سقر وعذابها وملائكتها ، فمن تقدم

إلى الخير أطلقناه ، ومن تأخر عنه سلكناه فيها .

قال ابن عباس : هذا تهديد وإعلام بأن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد

صلى الله عليه وسلم جوزى بثواب لا ينقطع أبداً ، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمداً صلى الله عليه وسلم عوقب عقاباً لا ينقطع أبداً .

وقال الحسن : هذا وعيد وتهديد وإن أخرج مخرج الخير كقوله : « **فَمَنْ شَاءَ** »

**فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ** » .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ  
يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟ (٤٢) قَالُوا  
لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٤٤) وَكُنَّا نَحْوُضٍ  
مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ (٤٧)  
فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَأَلْهَمُكَ التَّذْكَرَةَ مُعْرِضِينَ؟ (٤٩)  
كَانَهُمْ حُرٌّ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ  
أُمَّرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣)  
كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (٥٥) وَمَا يَذْكَرُونَ إِلَّا أَنْ  
يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ (٥٦)

### شرح المفردات

رهينة : أى مرتبنة بعملها مأخوذة به إما خلصها وإما أوقتها ، أصحاب اليمين :  
هم من أعطوا كتبهم بأيمانهم ، ما سلككم : أى ما أدخلكم ؛ تقول سلكت الخيط  
في ثقب الإبرة : أى أدخلته فيه ، نحووض مع الخائضين : أى نخالط أهل الباطل في  
باطلهم فكلمنا غوى غاوغونا معه ، اليقين : هو الموت كما في قوله : « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى  
يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » قاله ابن عباس ، مستنفرة : أى نافرة ، وقسورة : الرماة للصيد  
وأحدهم قسور قاله سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد ، منشرة : أى منشورة مبسوطة :  
تقرأ وتلشر .

## الإيضاح

(كل نفس بما كسبت رهينة) أى كل نفس مرتهنة بكسبها عند الله غير مفكوكه عنه ، كافرة كانت أو مؤمنة ، عاصية أو طائعة .

(إلا أصحاب اليمين) فإنهم فكوا رقابهم بحسن أعمالهم ، كما يخلف الراهن رهنه بأداء الحق الذى وجب عليه .

ثم بين مآل أصحاب اليمين فقال :

( فى جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم فى سقر؟ ) أى هم فى غرفات الجنات يسألون المجرمين وهم فى الدرجات قائلين لهم : ما الذى أدخلكم فى سقر؟ فأجابهم بأن هذا العذاب كان لأموار أربعة :

(١) (قالوا لم نك من المصلين) أى لم تكن فى الدنيا من المؤمنين الذين يصلون لله ، لأننا لم تكن نعتقد بفرضيتها .

(٢) (ولم نك نطعم المسكين) أى ولم تكن من المحسنين إلى خلقه الفقراء بفضل أموالنا ، المتصدقين عليهم بما تجود به نفوسنا .

(٣) (وكننا نخوض مع الخائضين) أى وكننا لانبالي بالخوض فى الباطل مع من يخوض فيه . قال ابن زيد : نخوض مع الخائضين فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم فنقول إنه كاذب ساحر مجنون ، وفى أمر القرآن فنقول إنه سحر وشعر وكهانة ؛ إلى نحو أولئك من الأباطيل .

(٤) (وكننا تكذب بيوم الدين) أى وكننا تكذب بيوم الجزاء والحساب .

(حتى أتانا اليقين) أى حتى علمنا صحة ذلك عيانا بالرجوع إلى الله فى الدار الآخرة .

(فما تنفعهم شفاعة الشافعين) أى فهم بعد انصافهم بهذه الصفات لا تنفعهم

شفاعة شافع ، لأن لهم النار خالدن فيها أبدا .

(فألمهم عن التذكرة معرضين؟) أى فأى شئ حصل لأهل مكة حتى أعرضوا عن القرآن الذى هو مشتمل على التذكرة الكبرى ، والموعظة العظمى ، قال مقاتل : إعرضهم عنه من وجهين :

(١) جحودهم وإنكارهم له .

(٢) ترك العمل بما فيه .

( كأنهم حُمُرٌ مستنفرة فرّت من قسورة ) أى كأن هؤلاء المشركين فى فرارهم من محمد صلى الله عليه وسلم حُمُرٌ وحشية هاربة من رماة يرمونها ويتمتعون بها لصيدها واقتراسها .

وفى هذا إيماء إلى أنهم مع موجبات الإقبال إلى الداعى والانتعاض بما جاء به يعرضون عنه بغير سبب ظاهر ، فأى شئ حصل لهم حتى أعرضوا عنه ؟

وفى تشبيههم فى إعرضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ ، وشرادهم عنه بحُمُرٍ وحشية جدت فى نفارها مما أفرعها - تهجين لحالمهم ، وشهادة عليهم بالبله ، فلا ترى مثل نفار حُمُرٍ الوحش ، وإطرادها فى العدو إذا هى خافت من شئ .

ثم بين أنهم بلغوا فى العناد حدا لا يتقبله عقل ، ولا يستسيغه ذو نفس حساسة فقال :

( بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا مفسرة ) أى هم قد بلغوا فى العناد حدا لا تجدى معهم فيه التذكرة ، فشكل واحد منهم يريد أن ينزل عليه كتاب مفتوح من السماء كما أنزل على نبيه ، وجاء نحو هذا فى قوله تعالى حكاية عنهم : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا مِّثْلَ نُوُرٍ » .

روى أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا : يا محمد إن تؤمن بك حتى تأتى كل واحد منا بكتاب من السماء ، عنوانه من رب العالمين إلى فلان بن فلان ونومر فيه باتباعك .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إن المشركين كانوا يقولون إن كان محمد صادقاً  
فليصيح عند رأس كل واحد منا صحيفة فيها براءته من النار .

(كلا) زجر لهم وتوبيخ على اقتراحهم لتلك الصحف المنشرة ، أى فهم  
لا يؤمنونها .

ثم بين سبحانه سبب هذا التعنت والاقتراح فقال :

(بل لا يخافون الآخرة) أى إنما دشأهم وطبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم أنهم  
كانوا لا يصدقون بالآخرة ، ولا يخافون أهوالها ؛ ومن ثم عرضوا عن التأمل  
فى تلك المعجزات الكثيرة ، وقد كانت كافية لهم جِدًّا الكفاية فى الدلالة على  
صدق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم للنبوة ، فطلب الزيادة يكون من التعنت الذى  
لامسوخ له .

ثم وبخهم على إعراضهم عن التذكرة فقال :

(كلا إنه تذكرة) أى ليس الأمر كما يقول المشركون فى هذا القرآن من أنه  
سحر يوثر ، بل هو تذكرة من الله خلقه ذكركم به ، فليس لأحد أن يمتذر بأنه لم  
يجد مذكراً ولا معرطاً .

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(فمن شاء ذكره) أى فمن شاء من عباده أن يذكره ولا ينساه ويجعله نصب  
عينيهِ فعل ، فإن نفع ذلك راجع إليه ، وبه سعاده فى الدارين .

ثم رَدَّ سبحانه الشبهة إلى نفسه فقال :

(وما يذكرون إلا أن يشاء الله) أى وما يذكرون هذا القرآن ولا يتعظون بعظاته  
ويعملون بما فيه إلا أن يشاء الله أن يذكرهم ، فلا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً إلا أن  
يعطيه الله القدرة على فعله ، إذ لا يقع فى ملكه سبحانه إلا ما يشاء كما قال سبحانه :  
« وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .

ثم ذكر ما هو كالعلة لما سلف فقال :

( هو أهل التقوى وأهل المغفرة ) أى فالله هو الحقيق بأن يتقيه عباده ،  
ويخافوا عقابه ، فيؤمنوا به ويطيعوه ، وهو التَّعِينُ بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم  
إذا آمنوا به وأطاعوه .

عن أنس رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقال :  
قال ربكم : أنا أهل أن أتقى ، فلا يُجمل معي إلهٌ ، فمن اتقاني فلم يجمل معي إلهاً  
فأنا أهل أن أغفر له » أخرجه أحمد والدارمي والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه  
في خلق كثير غيرهم .

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله أجمعين .